

الفصل السابع

الإمام السرهندي

(٩٧١-١٠٣٤هـ / ١٥٦٣-١٦٢٤م)

سهيل الفتاني

دكتوراه في الأدب الحديث، أستاذ مساعد في جامعة حائل في المملكة العربية السعودية

suhie1234@yahoo.com

المقدمة

الضروري الوقوف على شخصيته بسماتها الدينية والفكرية والروحية، وكذلك أهم الشخصيات التي كان لها تأثير واضح في شخصيته الدينية، دون أن نغفل الحديث عن أبرز الملامح الدينية والفكرية للمرحلة التاريخية التي نشأ فيها؛ لما لها من تأثير واضح في نشاطه الدعوي والإصلاحي.

أولاً: التعريف بالإمام السرهندي

ولد الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي في الرابع عشر من شوال عام ٩٧١هـ، الموافق للعام ١٥٦٣م في بلدة (سرهند) الواقعة في أرض بنجاب إحدى ولايات الهند. وينتمي السرهندي إلى أسرة عريقة تمتد نسبها إلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وقد كان كثير من أفراد أسرته من العلماء الربانيين، ممن اشتهروا بالعلم والعمل، وآثروا الزهد، واشتغلوا بالتربية والإصلاح، وفي تحصيل العلوم الدينية وتركبة النفوس.^(١)

وقد كانت مدينة (سرهند) منذ القرن الثامن الهجري عامرة بالعلماء والمصلحين، إذ أنجبت عدداً كبيراً من العلماء والدعاة. وكان والده الشيخ عبد الأحد بن زين العابدين (توفي ١٠٠٧هـ) أحدهم، وكان صاحب مدرسة وزاوية معاً. وقد كان له تأثير واضح في صقل الشخصية الدينية للإمام السرهندي بجانبيها العلمي والروحي.

١. نشأته العلمية:

بدأت ملامح الرشد والإصلاح بالظهور عند الإمام السرهندي منذ نعومة أظفاره، وكان والده أول معلميه؛ بدأ

من نافلة القول: إن الإسلام مثّل في جوهره دعوة إصلاحية شاملة، كان من أهم غاياتها تحرير الإنسان من الشرك والضلالات، وتخليصه مما شاب عقله من الخرافات والأوهام. والمتتبع لتاريخ الإسلام يرى أن حركة الإصلاح لم تنقطع، منذ بدأها الرسول -عليه الصلاة والسلام- إلى يومنا هذا؛ إذ لم تقتصر على عصر دون عصر، أو بقعة جغرافية من العالم الإسلامي دون أخرى، فقد رافقت دعوات الإصلاح شتى المجتمعات الإسلامية عبر عصورها المختلفة. وكغيرها من البلدان الإسلامية لم تكن شبه القارة الهندية بعيدة عن الجهود الإصلاحية الهادفة إلى تجديد الوعي الديني، فقد أفرزت عدداً كبيراً من الحركات الإصلاحية وقادة الفكر والإصلاح الديني عبر عصورها المختلفة.

ويعد الإمام السرهندي أحد أبرز دعاة الإصلاح والتجديد في القارة الهندية، فقد كانت له إسهامات إصلاحية واضحة في عصره، وتحديدًا مع نهاية القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادي عشر الهجريين.

ومما هو جدير بالملاحظة أن تأثيره لم يقتصر على عصره، بل تعداه إلى التأثير في كثير من حركات الإصلاح في الهند التي ظهرت من بعده، فأراؤه الإصلاحية لم ينحصر حضورها في الهند، بل تعداه إلى ما سواها من البلدان. ونظراً لهذه الجهود الكبيرة التي قام بها، والنجاحات المتميزة التي حققها، فقد أطلق عليه لقب «مجدد الألف الثاني».

وقبل الحديث عن جهوده الإصلاحية، نجد من

٢. نشاطه العلمي والروحي:

واضح مما تقدّم من سيرة الإمام السرهندي أنّه كان عالماً ربانياً ومربيّاً ، فقد جمع بين العلم والتربية، فكان له بذلك اشتغالات: اشتغال بنشر العلم تدريساً وتأليفاً، واشتغال بتزكية النفوس بالتربية الروحية إرشاداً ووعظاً، وكتابة وتأليفاً في هذا كذلك. وقد لازمه هذان الاشتغالان طوال حياته، التي يمكن أن نقسّمها إلى مرحلتين: المرحلة الأولى: وفيها كان الاشتغال بالعلم هو الغالب على نشاطه، في حين نجد الاشتغال بالتربية هو الغالب في المرحلة الثانية، علماً بأنّه لم ينقطع عن الجانب العلمي في شتّى مراحل حياته؛ إذ ظل حريصاً على التعليم طوال حياته، ولا نستثني منها سوى الفترات الأخيرة من حياته عندما اعتزل الناس، وتفرّغ للذكر والعبادة استعداداً للقاء ربه، حتى وافته المنية ضحى يوم الثلاثاء في الثامن والعشرين من صفر عام ١٠٣٤هـ الموافق ١٦٢٤م عن عمر يناهز ثلاثاً وستين سنة.

٣. مؤلفاته ورسائله:

ترك الإمام السرهندي مجموعة من المؤلفات والكتيّبات والرسائل أكثرها بالفارسية، بلغ عددها (٥٣٦) رسالة، وأكثرها شهرة ونفعاً مجموعة رسائله التي تسمّى (مكتوبات الإمام الرباني) وقد ترجمت إلى العربية والتركية وغيرها من اللغات، واحتوت على مجمل أقواله وآرائه. وتعدّ من أعظم مآثره العلمية والإصلاحية والتجديدية، ففيها تصوير لعواطفه ومشاعره، وبها تعرف مكانته في التجديد والإصلاح وبلوغه درجة الاجتهاد والإمامة في المعارف الإلهية والعلوم الدقيقة، والانتصار للكتاب والسنة. وقد حظيت هذه الرسائل بالقبول والانتشار والدراسة والتأمل. ومن أشهر هذه الرسائل:

- إثبات النبوة.
- ردّ الروافض، وهي ردّ على بعض الشيعة الإيرانيين.
- الرسالة التهليلية (بالعربية).
- المبدأ والمعاد (بالفارسية)، وهي تشتمل على معارف الإمام السرهندي وعلومه، وتتكون من ٦١ فصلاً، وهي مترجمة إلى العربية.

رحلته العلمية معه بحفظ القرآن الكريم، وبعد الفراغ منه بدأ يتلقّى مبادئ العلم عند والده، وقرأ بعض العلوم على غيره من علماء الهند. وبعد مدة يسيرة برزت مواهبه وميزته في سرعة الفهم.

ولم يقتصر تحصيله العلمي في حدود مدينته سرهند، بل حمل عصا الترحال إلى مدينة (سيالكوت) التي كانت آنذاك مركزاً علمياً، فقرأ هناك على مجموعة من العلماء، من أبرزهم: الشيخ كمال الدين الكشميري (توفي ١٠٠٧هـ)؛ إذ قرأ عليه في المنطق والفلسفة والكلام وأصول الفقه، وقرأ الحديث على المحدث الشيخ يعقوب الكشميري (توفي ١٠٠٣هـ) وكان تلميذاً لمحدث عصره الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجة الهيتمي المكي، وقرأ صحيح البخاري وغيره على العالم الرباني المحدث القاضي بملول البدخشاني، وكان من تلاميذ المحافظ ابن حجر العسقلاني.

وإضافة إلى انشغال الإمام السرهندي بعلوم الكتاب والسنة وغيرهما، فقد اعتنى بتزكية نفسه وتغذيتها بالتربية الروحية على أيدي أجلة شيوخ عصره وعلى رأسهم والده الشيخ عبد الأحد، فقد لازمه، واستفاد منه، وأخذ عنه الكثير في هذا الباب. وبعد وفاة والده بمدة قصد الإمام الحج إلى البيت الحرام، وفي طريقه بدلي التقى الشيخ عبد القادر النقشبندي الدهلوي أحد كبار الطريقة النقشبندية، وكان من العلماء العاملين والمشايخ الربانيين، فاتصل الإمام به واستكمل في صحبته مسيرته الروحية، وحصل على التربية الربانية التي كان يسعى إليها.

وقد أعجب الشيخ عبد القادر بالإمام السرهندي بما إعجاب، يدل على هذا ما كتبه إلى بعض المخلصين من أخلائه معبراً عن الصلة الروحية بينهما: «إن الشيخ أحمد الذي هو من سكان سرهند، والعالم الرباني الوافر العلم القوي العمل، صاحب هذا الفقير مدة يسيرة، فشاهد الفقير عجائب أحواله وعظيم صفاته وباهر مقاماته، وأرجو أن يكون سراجاً يضيء العالم، وإنني على ثقة ويقين من أحواله الكاملة»^(١). وكان الإمام السرهندي، مع هذه الفضائل التي يتمتع بها، والمنزلة العلمية والروحية التي توصل إليها، متأدباً مع شيخه غاية التأدب

٤. أشهر تلاميذه:

وللمكانة العلمية والروحية والإصلاحية التي تبوأها الإمام السرهندي، فقد احتل مكانة رفيعة بين علماء عصره، وقد لقيت دعوته قبولاً واسعاً، وأثمرت جهوده الإصلاحية، ويدل على ذلك الجمع الغفير من أتباع دعوته في الهند وغيرها من البلدان، إذ بلغوا في عددهم ألوفاً ممن تفرقوا في كثير من البلدان يحملون دعوته وينشرونها بين الناس مثل: الشيخ الإمام محمد السرهندي، والشيخ آدم البنوري العاملي، والشيخ سيف الدين السرهندي، والشيخ طاهر اللاهوري، وغيرهم من العلماء والعارفين ممن يصعب حصرهم^(٣).

ثانياً: الوضع الديني والروحي في الهند في القرن العاشر الهجري

كانت الهند في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وتحديدًا بين عامي ٩٧١ و ١٠٣٤ للهجرة، واقعة تحت حكم الإمبراطورية المغولية التي استمرت نحو ثلاثة قرون (١٥٢٦م - ١٨٥٧م). وكان الملك ظهير الدين بابر المغولي - وهو من سلالة تيمور لنك - مؤسس هذه الإمبراطورية، وقد تولّى الحكم في عصر الإمام السرهندي الملك جلال الدين محمد أكبر، واستمر في الحكم بدءاً من عام ٩٦٣ مدة نصف قرن.

تفيد الوقائع التاريخية بأن الدولة الإسلامية في الهند تأسست في القرن الثامن الهجري على أيدي حكام من أصول أفغانية أو تركية، لذلك كان تأثير الدين عميقاً في نفوس أهل الهند، ويذكر التاريخ الخاص بالهند عدداً من السلاطين قاموا بحماية الشريعة الإسلامية والسنة النبوية ومحاربة الكفر والإلحاد، ووقفوا في وجه البدع والمنكرات، وقد شهدت هذه البلاد - خصوصاً في القرن العاشر - ازدهاراً في التصوف وانتشار الطرق الصوفية المتعددة التي تركز على الزهد والعفة .

وفي مقابل هذه الصورة الإيجابية في الهند، برزت هناك صورة نقيضة تماماً؛ إذ ساد الاضطراب الفكري والعقائدي في الهند على نحو غير مسبوق. وقد تضافرت أسباب عدة في شيوع هذه الأمور، من أبرزها بُعد الهند عن

مراكز الإسلام الدينية والثقافية، وهو ما ترتب عليه ضعف الجانب العلمي، وبخاصة في اللغة العربية، وعدم الاعتناء بعلوم الحديث التي تكشف روح الدين الصحيح وتميّز بين السنة والبدعة. وثمة عامل آخر في غاية الأهمية، هو وجود المسلمين بين أكرية غير مسلمة من الهندوس، ممن ظلوا متمسكين بعقائدهم وعاداتهم البعيدة عن الإسلام، التي تتضمن الخرافات والأوهام. وقد تضافرت هذه العوامل في انتشار الدعوات الهدامة، والفرق الضالة، والمتاجرين بالدين لحساب مصالحهم الشخصية. وأخطر هذه الدعوات كانت تحمل طابع التشيع الذي نشأ وترعرع بتأثير الإيرانيين في بعض المناطق الهندية الجنوبية، حيث ظهرت مذاهب شيعية متطرفة، ومن أبرزها: الفرقة المهدوية، والفرقة الروشنائية، وحركة ذكرى.

ثالثاً: الجهود الإصلاحية للإمام السرهندي

تتضح لنا مما سبق الحالة الدينية والفكرية المتردية التي كانت تهيمن على المجتمع الهندي، وما رافقها من شيوع الاضطراب العقائدي والفكري. أمام هذه المحنة كانت الهند بانتظار شخصية إصلاحية للوقوف في وجه هذا التيار الإلحادي، الذي كان يعصف بالوجود الإسلامي في القارة الهندية. وهذه الشخصية المنتظرة، تمثلت في الإمام السرهندي، الذي أدّى الدور المنوط به على أكمل وجه، فأكمل بنجاحه الباهر إصلاح مواطن الخلل في النفوس والعقول، والكشف عن الصورة الحقيقية للإيمان. ومما يميّز شخصية الإمام السرهندي - مع وجود عدد غفير من العلماء والمربين في عهده - غيرته الشديدة على أموال المسلمين، وهذا ما جعله يستحق لقب «مجدد الألف الثاني» عن جدارة. وقد امتازت دعوته بالشمول والتنوع، فشملت قطاعات المجتمع المختلفة: العوام، والعلماء، والوزراء، والأعيان والحكام، وسائر الفئات المختلفة.

ثمة إجماع لدى دارسي التاريخ الإسلامي على الدور المهم الذي قام به الإمام السرهندي في الدفاع عن الإسلام ونصرته، وفي تجلية الفكر الإسلامي على وجهه الصحيح، وفي إنعاش الروح الدينية في الهند، واتفقوا على أهمية جهوده الجبارة في الوقوف أمام الدعوات الضالة القائمة

المعارضة مع تأله الشديد للحال الذي وصل إليه الإسلام. وقد كتب إلى أحد كبار رجال الدولة: "وايلاه واحزنانه وامصيبناه واحسرتناه! اتباع محمد- صلى الله عليه وسلم- الذي هو حبيب رب العالمين أذلة ضعفاء مهانون، والجاحدون بنبوته أعزة أقوياء مكرمون... غابت شمس الهداية في ظلام الضلال، واختفى نور الحق في حجب الباطل وسجبه الداكنة".^(٤)

وقد اتبع الشيخ وسائل عدة لتحقيق الإصلاح الديني والعقائدي، وتخليص الهند مما عانتها من فوضى دينية وفكرية. فمن رسائله: المكتبة والمراسلة. وقد اتبع هذه الوسيلة للاتصال بأعيان البلاد ورجال العلم وأصحاب الزوايا وأولي الأمر.

وأهم ما تركه الإمام السرهندي من مؤلفاته هو مجموعة رسائله ومكاتباته، وهي تعبير صادق عن مشاعره وميوله، وناطق أمين عن معارفه وعلومه، وبرهان ساطع على تغلغله في العلوم الفلسفية الدقيقة والمعارف الروحية والسلوكية. وقد قدر الله -تعالى- لهذه الرسائل قبولاً عاماً في أوساط رجال الدعوة والإصلاح، فغدت منهاً علمياً فياضاً، ومصدر إشعاع روحي للمصلحين والمسترشدين. وقد وظف الإمام هذه الرسائل في دعوته الإصلاحية، فكان منها ما هو موجه إلى الأمراء ورجال البلاط الملكي بهدف التأثير فيهم، وإثارة العاطفة الدينية في نفوسهم، ومنها ما هو موجه إلى تلاميذه ومسترشديه وآخرين غيرهم. وقد ركز في رسائله على أهمية دور العلماء، وخطورة مهمتهم، وحذر من جانب آخر من علماء السوء وخطرهم على الإسلام والمسلمين، فيقول متحدثاً عنهم: "إن صحتهم سم قاتل، وإن فسادهم يكون عاماً ومتعدياً، وفي عصر الملك أكبرهم كانوا وراء الفساد أضلوا الحكام وألقوا الإسلام في محنة".^(٥)

وأكد أهمية الحاكم المسلم، ودوره في صلاح الأمة، ويقول في هذا الشأن عن السلطان: "إنه بمنزلة القلب من الجسد، إذا صلح القلب صلح الجسد كله، كذلك إذا صلح السلطان عم الخير في العالم، وإذا فسد انتشر الفساد في المجتمع كله".

لقد استخدم الإمام السرهندي قلمه البليغ لإقناع

على الرياضات والمجاهدات، وفي مقاومة التجارب الباطنية والروحية المعتمدة على وسائل خاصة بعيدة عن الشريعة. قام السرهندي بحركة إصلاحية شاملة، وثورة دينية امتدت خارج حدود شبه القارة الهندية، وشعت بنورها على ما يحيط بالهند من أصقاع يوجد المسلمون فيها. وكان من ثمار دعوته بروز كثير من العلماء ممن تأثروا بهذه الحركة الإصلاحية، ونشروها بين تلاميذهم ومريديهم، فحملوا تعاليمه، وتبنوها ونشروها. وتجلت إسهاماتهم في جوانب شتى: نشر العلم وإنشاء المدارس والتربية الروحية، وإصلاح العقائد والرد على البدع. ونتيجة لجهادهم المتواصل حولوا الهند إلى أحد مراكز الثقل في العالم الإسلامي على مستوى العلوم الدينية والفكر والدعوة.

لقد انطلقت حركة السرهندي الإصلاحية من معانيته للواقع الهندي، وما يشوبه من اضطرابات وانحرافات خطيرة. ويمكن أن نلخص التحديات التي كانت تواجه المسلمين في عصر السرهندي فيما يلي:

- ١- ارتداد الملك المغولي جلال الدين أكبر عن الإسلام ومحاولته القضاء على الإسلام، وتسخير علماء السوء وأجهزة الدولة المختلفة لهذا الغرض، وتحويل الهند من بلد إسلامي إلى بلد تكون فيه الهيمنة للهندوس وأهل الديانات الأخرى، لتحقيق الاستقرار السياسي.
- ٢- انتشار البدع والانحرافات، وشيوع التصوف المنحرف، وانشغال كثير من أهل الزوايا في ترويج فكرة وحدة الوجود وعقيدة الحلول والاتحاد، وادعاء سقوط التكاليف الشرعية، فقد شاع بين أوساط المتصوفين أنه إذا ارتفع الحجاب باختلاط الكفر والإيمان والإيمان بالكفر، ارتفعت العبادة والعبودية.
- ٣- سيطرة الفلسفة اليونانية على العقول وانحراف الناس بسببها، وترديد العلماء ورجال الدين للمقولات الفلسفية وانشغالهم بالمناقشات والمناظرات فيها.
- ٤- كثرة ضعف النفوس وعلماء السوء من أهل المطامع الدنيوية.

وقد رأى الإمام السرهندي في حالة المسلمين هذه، خطورة على الدين، لم تكن معالجتها بالأمر الهين، ولهذا اتّصف موقفه بالحكمة والتأني، فلم يقف في البداية موقف

يعود إلى أن والد الإمبراطور (هامايون) كان قد فقد السلطة، مما اضطره للهرب إلى إيران التي كان يحكمها الشيعة الصفويون، فطلب منهم التأييد والمساعدة، فساعده في استرداد حكمه، فأدّى هذا إلى تغلغل التشيع في الهند. وقد دفعت رغبة الإمبراطور أكبر في إحكام السيطرة على الهند إلى استمالة الأغلبية الهندوسية، فتزوج عدداً من الهندوسيات، وعيّن كثيراً من الهندوس في المناصب الرفيعة. وقد شاعت مع نهاية القرن العاشر الهجري فكرة مفادها أن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانت خاصة الألف سنة الأولى، مما يلزم قيام دين جديد مع بداية الألف الثانية. ويبدو أن الفكرة راقت للإمبراطور بتأثير من علماء البلاط. ورغبة منه في صهر الأديان في الهند في دين واحد جديد، أقرّ الإمبراطور ديناً جديداً سمّاه (الدين الإلهي) وذلك بدمج بعض المبادئ الإسلامية بأساطير الهندوسية والبراهموية والمسيحية، فجمع لهذا في بلاطه علماء من شتى الديانات والفرق من الهند وإيران وبلاد ما وراء النهر، وافتتح (دار العقيدة) التي شيّدها؛ ليفد إليها الزردشتيون والبوذيون والمسيحيون، واستمع إلى معتقداتهم وآرائهم، وجمع خلاصة ما سمع في دينه الجديد.

وفي سنة ١٥٨٢ م قرر فرض (الدين الإلهي) على الناس،^(٦) فأمر بالاحتفال بعيد النيروز وتزيين الشوارع والبيوت، وكان من أسس هذا الدين الجديد: تقديس الشمس والنار، وإباحة زواج الأرمال، وتحريم عادة حرق المرأة في حالة وفاة الزوج أو الطلاق، وتحريم ذبح البقر، وتحليل أكل الخنزير، وقام بمنع الصلاة ومحاربة تدريس اللغة العربية، ومنع الأذان في المساجد، وإلغاء أسماء إسلامية مثل محمد وأحمد، وعلاوة على ذلك فقد اعتبر نفسه سيد البشر، ولذلك فرض تمجيد الناس له ومناذاته (الله أكبر) وقام بإلغاء التقويم الهجري ووضع بدلاً منه التقويم الإلهي الذي يبدأ من تاريخ توليه حكم الإمبراطورية.

ولم يكن الإمام السهرندي -وهو المعروف عنه غيرته على الإسلام- أن ينأى بنفسه عن هذا الانحراف الديني والفكري الذي شاع في الهند، فانبرى يتصدى لمحاربة العبث بمبادئ الإسلام ومكافحة الإلحاد الذي فرضه الإمبراطور.

العقول وتغيير القلوب بدل إشهار السيوف لإزاحة الهامات وقطع الرؤوس.

تميزت رسائل السهرندي بعلم غزير، وروحانية مؤثرة وأسلوب أخذ، فأحدثت رسائله المؤثرة بذلك انقلاباً في الأوساط السياسية من الأمراء ورجال البلاط. واستطاع بحكمته أن يحدث تغييراً جذرياً في الأسرة الحاكمة، وهو ما ظهر عند الإمبراطور جهانكير الذي خلف والده أكبر، فأوقف الإلحاد والفساد، ثم ورثه شاهجهان فكان أحسن إسلاماً منه، وأورنغ زيب عالمكير، الذي ورث عرش الأسرة المغولية، فكان في صلاحه من الملوك الراشدين، وقد تحققت هذه الإنجازات المهمة من غير إراقة قطرة من الدماء.

أما الوسيلة الثانية: فكانت إرسال بعثات ووفود من الدعاة والمصلحين إلى أنحاء الهند كافة، وخارجها. وقد كانت هذه الوفود والبعثات على شكل جماعات منظمة، لها أمراء يشرفون عليها ويديرون شؤونها، فقد أرسل وفوداً إلى تركمانستان والحجاز واليمن والشام، بالإضافة إلى توران وبدخشان وخراسان، ونتيجة لهذه البعثات فقد أمّه كثير من الناس أفراداً وجماعات من شتى مناطق الهند ومن خارجها، فاستمعوا لدعوته وتأثروا بها.

رابعاً: دور السهرندي في مواجهة الانحراف الديني يهدف السهرندي إلى الإصلاح وإعادة الناس إلى الإيمان الصحيح وتجديد الثقة بالإسلام، وتخليصه مما شابه من انحرافات عقائدية، ويأتي على رأس هذه الجوانب ما يأتي: ١٠ فتنة القرن العاشر الهجري الكبرى:

وهي ترتبط بالإمبراطور جلال الدين محمد أكبر؛ حفيد مؤسس الإمبراطورية المغولية، الذي حكم الهند نحو نصف قرن، وقد شُغف الإمبراطور أكبر بالمنظرات الدينية، لذلك فقد جمع في مجلسه العلماء من المذاهب والفرق المختلفة للنقاش معه في القضايا الدينية والفكرية، فكان مجلسه يجمع السنة والشيعة إلى جانب الهندوس وأهل الكتاب، وقد ارتبط ببلاطه بعض علماء السلطان من ضعاف النفوس، الذين كان لهم تأثير واضح في فكر السلطان الديني وعقيدته. وقد كان للجانب السياسي دور مهم في عقيدة الإمبراطور أكبر، فبلاطه كان مرتعاً خصباً للشيعة، وهذا

وإعادة بناء المساجد والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية.
٢٠ جهودته في إصلاح التصوف:

ومن الأمور التي تصدّئ لها الإمام السهرندي قيامه برّد البدع وتنقية الإسلام من الشوائب التي علقت به، بسبب انتشار التصوف المنحرف بين عامة الناس، ووقوع كثير منهم في الشرك والاعتقاد ببعض العقائد المنحرفة، مثل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وما تضمن ذلك من الخروج على التكالييف الشرعية في العبادات والمعاملات، بحجة التأويل الفاسد التي تفتح أبواب الإلحاد والحرية المطلقة والإباحية، وعدم التفريق بين الحقّ والباطل والكفر والإيمان، وقد زاد من انحراف التصوف في الهند اختلاطه بعقائد الأديان والمذاهب السائدة هناك، مثل اليوغا والتنسك والرهبة المنتشرة بشكل خاصّ عند البراهمة والبوذيين.

وقد خصّص السهرندي جزءاً واسعاً من جهده في تفنيد عقيدة وحدة الوجود، وعرض بدلاً منها فكرة وحدة الشهود، فقد تحدّث في رسائله التي وجّهها إلى شيوخ عصره وأصحاب الزوايا، مصوراً هذا الوضع القائم: "لقد كثرت البدع والمحدثات في هذه الأيام كثرة فاحشة، حتى ليخيّل للناظر أنّ بحراً من الظلمات تتلاطم أمواجه، وأنّ نور السنة في هذا البحر الهائج المائج يتلأّلاً تلاًّلاً يراعات منتشرة في ظلمة الليل البهيم".

في هذا الجوّ القائم راح الإمام يخلّص التصوف ممّا علق به من أوهام وخرافات، كفضيل الحقيقة على الشريعة، والانقياد التام لشيوخ الطرق، وما يتصل بالتصوف من مفاهيم خاطئة من أحوال ومواجيد، وعلوم ومعارف وشطحات. وبين أنّ العمل بأحكام الشريعة مقدّم على الحقيقة الباطنية والكشف، لإصلاح النفس وإزالة الأمراض الباطنية، إذ إنّ الشريعة أنفع وأصحّ من الرياضات والمجاهدات. وحارب ما لازم التصوف من مظاهر الشرك والعبادات الجاهلية وتقليد الكفار في أعيادهم وطقوسهم، وعلاوة على ذلك فقد وقف في وجه النذور وذبح القرابين للأولياء والصالحين، ونهى عن سجدة التحية للملوك والسلطين.

٣٠ موقفه من فكرة وحدة الوجود:

تعد فكرة وحدة الوجود من الأفكار القديمة في

وقد قيضه الله تعالى للوقوف في وجه هذا الطغيان. وهنا يبرز الدور التاريخي التجديدي وجهوده الإصلاحية، وقد نجح في القضاء على فتنة (الدين الإلهي) واسترداد ثقة المسلمين بدينهم الإسلامي الحنيف ومبادئه العظيمة، وقد بذل كل ما يملك من طاقة وجهد في سبيل تغيير مسار الإمبراطورية المغولية من الكفر والإلحاد إلى حماية الإسلام وعقيدته، بعدما وجّه الرسائل المؤثرة إلى العلماء من الأمراء ورجال البلاط لإنقاذ الإمبراطور (أكبر) وأعوانه من الضلال، ودحض كافة الشبهات عن الإسلام وأحكامه ومعتقداته.

واستمرت دعوة الإمام المجدد في أثناء حكم الملك أكبر، ولما بدأ عهد ابنه (جهانكير) اطلع على نشاط الشيخ وتأثيره في الناس فأمر بسجنه. ومن مواقف الإمام السهرندي الرائعة أنّه حينما دعاه الملك جهانكير إلى قصره للمثول أمامه دخل من غير أن يسجد له، ولما أمره الملك بذلك أيّ قائلاً: "ما سجدت لغير الله قطّ ولن أسجد لغيره أبداً"، فاستشاط الملك غضباً، وأمر بسجنه، ووضع في الإقامة الجبرية في قلعة كواليار.

وفي أثناء إقامته الجبرية، استطاع الشيخ تحويل السجن إلى دار للإصلاح والدعوة، فهدى الله تعالى على يديه المساجين من اللصوص وقطاع الطرق والقتله وتابوا على يديه، وغدوا من أتباع دعوته. وقد ذكر المستشرق الشهير آرنلد هذه الحادثة في كتابه المعروف (preaching of islam) أو (الدعوة الإسلامية): "كان في عهد السلطان جهانكير عالم سني يدعى أحمد المجدد، اشتهر بالرد على الشيعة، وكان الشيعة ذوي نفوذ في البلاط، فاحتالوا عليه حتى سببوا له في الاعتقال فبقي في المعتقل عامين، واستمال في هذه المدة مئات من رفقة السجناء من غير المسلمين إلى الإسلام فاعتنقوه".^(٧)

وبعدما تأكد الملك من عظم جهود الشيخ الإصلاحية أطلق سراحه، وخصوصاً بعدما اطمئن إلى عدم خطورته على الدولة، فدعاه إلى قصره وبالغ في إكرامه، ولما رأى مسيرة الشيخ وسلوكه تأثر بآرائه، فما كان منه إلا أن أمر الناس بترك الدين الإلهي، فضلاً عن أنه أصدر مرسوماً يقضي بإباحة ذبح البقر وأكل لحوم الحيوانات، وتحريم السجود للملوك،

ووصفها في صورة جديدة توافق الكتاب والسنة.

٤٠ جهوده في نقد فكرة العقل المجرد:

شاعت في عصر الإمام السهرندي الفلسفة اليونانية، وانتشرت مقولات الفلاسفة في القضايا الغيبية، وقد كان لها حضور واضح لدى العلماء ورجال الدين؛ إذ نجدهم قد انشغلوا بها في مناقشاتهم ومناظراتهم؛ وهو ما تسبب في النتيجة في التأثير السلبي على عقول الناس وانحراف كثير منهم بسببها.

ومن الأعمال التجديدية التي قام بها السهرندي في هذا السياق إثباته عجز العقل والكشف، وقصورهما عن إدراك الأمور الغيبية؛ إذ نبه على أن المعرفة الناتجة عن العقل ليست معرفة قاطعة، وأن نتائجها المكتسبة لا تخلو من الشك والريبة والخطأ والزلل وسوء الفهم والتحريف. وعلى ذلك فإن المعرفة الصحيحة لذات الله سبحانه وتعالى لا تدرك إلا عن طريق الوحي وبوساطة الأنبياء والمرسلين. وهو في هذا يؤكد على التعارض بين تعاليم الفلاسفة وهدي الأنبياء، ولذلك نجده يتوقف طويلاً عند المفاضلة بين العقل والنبوة؛ إذ إنه يرى أنه إذا كان العقل وراء طور الحس فإن النبوة وراء طور العقل.

من الثابت أن الفلسفة في كثير من اتجاهاتها ومذاهبها قد أعلت من مكانة العقل وجعلته السبيل الوحيد لإدراك الحقائق الكونية، لذلك نجد جملة من الفلاسفة قد نفوا عن الله تعالى صفات الخلق والقدرة والاختيار والفهم، وزعموا عدم تدخله في أحداث العالم، وبهذا ضلوا وتاهوا.

يقول السهرندي معلقاً على هذا الأمر: "إذا كان العقل يكفي للمعرفة الإلهية لما أنكر سفاهة حكماء اليونان المعرفة الإلهية". وكان فلاسفة اليونان الذين جعلوا العقل إمامهم وقائدهم حيارى تائهين في بيداء الضلال، ولولا ذلك لكانوا أعلم بالله من غيرهم، والحال أنهم بذات الله - عز وجل - وصفاته وأسمائه؛ إذ إنهم ظنوا أن الله تعالى شأنه وجوداً يتسم بالتعطل والبطالة، ولا يعتقدون أنه خلق شيئاً

سوى شيء واحد هو العقل الفعّال^(٨).

وأثبت أن العقل الإنساني لا يمكن حياده وتجرده ولذلك لا مندوحة له عن معرفة الحقائق الإلهية. يقول-

التراث الإسلامي، فقد اشتهرت على لسان المتصوّفين القدامى. ويعدّ الشيخ محيي الدين بن عربي مؤسس هذه الفكرة ورائدها، وقد انتشرت في الأوساط الصوفية في شتّى البلدان الإسلامية، وكانت الهند من هذه البلدان، فقد وصلت هذه الفكرة في القرن الثامن الهجري، ولقيت من القبول ما لم يكن في بلد آخر، بسبب انتشار العقائد والمذاهب الإشراقية والباطنية.

وقد انقسم علماء الهند بشأن هذه الفكرة ثلاثة مذاهب، يعرضها العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه عن السهرندي، وهي:

- التأييد التام لها بوصفها حقيقة بديهية وغاية للمعرفة والحقيقة

- المعارضة الكلية لها؛ إذ إنها ليست إلا نتاج الوهم والخيال.

- عرض نظرية (وحدة الشهود) بدلاً من وحدة الوجود، فما يراه السالك في الحقيقة ليس وحدة الوجود، فكل ما هو واجب الوجود معدوم لا حقيقة له.

واختار الإمام السهرندي مذهباً رابعاً يضاف إلى هذه المذاهب الثلاثة، وهو أن وحدة الوجود مقام يعرض للسالك خلال السلوك، فيشاهد عند ذلك - عياناً لا جهاراً - أنه لا وجود إلا لواجب الوجود، وأن ما يراه الإنسان من وجود ما هو إلا وجود واحد، وما سواه إلا تنوع وتجليات له، ولو حالف التوفيق الرباني السالك ورافقه الهدي النبوي وكان صاحب طموح وهمة عاليتين فإنه يفوز بمقام آخر هو (وحدة الشهود).

وهذا الرأي الذي اتخذه الإمام السهرندي يمثل الرأي الوسط، ويكشف عن موقفه المعتدل من الشيخ ابن عربي، فهو عنده من المقبولين، ومع ذلك فقد أبدى معارضة لعلومه ومعارفه التي يرى أنها تخالف عقائد جمهور الأمة وظاهر الكتاب والسنة، وما سببته لدى القارئ من سوء تقدير وفهم.

وبهذا التصور للمسألة يضيف الإمام السهرندي إضافة جديدة لنظرية (وحدة الوجود)، كما هي سائدة بين أوساط المتصوّفين والحكماء والإشراقيين بعد نقضه لها،

المسائل، ويصل إلى كنه الكون، ثم يأتي عليه زمان يتجلى له فيه أن هذه الأبنية العقلية والفكرية لا تنطح السحاب، ولا تسمو إلى الأفلاك، ولا يمكن الاتفاق فيها على خطة مبنية على الأعداد، وهذه فترة الارتباب والتشكيك".^(١٠)

الخلاصة:

بعد هذا التطواف في رحاب فكر الإمام السرهندي وجهوده الإصلاحية، يمكن أن نحمل ما قام به من عمل تجديدي ودور دعوي في النقاط الآتية:

- قام بإعادة الحكام الهنود إلى رحاب الشريعة والمحافظة على الوجود الإسلامي في القارة الهندية.
- رد ثقة المسلمين بدينهم وعقيدتهم بعدما شاعت الفوضى والأوهام، وتسببت في إبراز صورة سلبية عن الإسلام ومبادئه الحنيفة.
- دحض أكبر محاولة في تاريخ الهند للتفريق بين الأديان، وتغليب المفاهيم الوثنية على مبادئ التوحيد، وهو ما كان يهدف إلى القضاء على الإسلام.
- قام بتطهير التصوف من الأفكار الإلحادية والإباحية التي تسربت بتأثير الزنادقة والدجالين من أديعاء التصوف.
- وضع حد للأضاليل التي كان يروجها الفلاسفة وأصحاب العلوم الكشفية من أهل التصوف.

رحمه الله- في إحدى رسائله مبنياً هذه المسألة: "إنّ العقل ما تزال علاقته بالجسم العنصري، ولا يجد إلى التجرد الكامل أو التحرر المطلق سبيلاً، فإنّ القوة الوهمية تمسك بزمامه، والقوة المتخيلة تأخذ بلجامه، وقوة الغضب والشهوة كالظّل المرافق له، وخصال الحرص والطمع الذميمة لصيقة به، وإنّ السهو والنسيان من لوازم الإنسان، والخطأ والغلط من خصائص البشر، ولا يزولان عن العقل، فليس العقل إذن جديراً بالثقة والاعتماد، وليست أحكامه ونتائجه متحررة من قيود الوهم... لذلك تبقى العلوم المحصلة من تصرفات العقل وحده موضع شك".^(٩)

إن ما قام به السرهندي من جهد فكري في محاولة تخفيف حدة هيمنة فلسفة العقل يعد عملاً في غاية الأهمية، ولعل وجهة رأيه الثاقب في هذه المسألة تتجلى لنا من متابعة الفلسفة الحديثة؛ إذ نجد الفيلسوف الألماني الشهير إمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) يقوم بتخصيص كتابه المعروف (نقد العقل الخالص) الذي أصدره سنة ١٧٨١؛ أي بعد ما يقرب من قرنين على دعوة السرهندي؛ نجده يحقق في صلاحية العقل وسيلة للمعرفة، وفي حقيقة تجرده من البيئة وعوامل البيئة، وعن العادات والمعتقدات، يقول (كانت) في كتابه: "إن الفكر يبدأ بمهمته بالدعوى، ويعتمد- من غير شعور، وفي معظم الحالات لسذاجته - على صحة مقدماته وفرضياته وطاقاته، ويكون على ثقة و يقين بأنه يحل جميع

المراجع

- (١) الندوي، أبو الحسن علي الحسيني. رجال الفكر والدعوة في الإسلام، تعريب: سلمان الحسيني الندوي، الكويت: دار القلم، ط ٣، ١٩٩٣. وقد اعتمدنا على هذا الكتاب بشكل كبير في هذا البحث عن الإمام السرهندي.
- (٢) الكشي، محمد. زبدة المقامات، القاهرة: دار إحياء التراث، ط ١، ١٩٩٠، ص ١٥٨.
- (٣) ذكر الندوي عدداً وافراً من تلاميذه في: - الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٣٧ وما بعدها.
- (٤) المرجع السابق، ص ٣٠٦.
- (٥) السرهندي، أحمد. المكتوبات، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤، ج ١، ص ٤٧.
- (٦) الفقي، عماد الدين. بلاد الهند في العصر الإسلامي، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٠، ص ٢٠٠.
- (٧) توماس، أنولد. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، ط ١، مصر: مكتبة النهضة ١٩٤٧.
- (٨) السرهندي، المجموعة الثالثة، الرسالة رقم ٢٣.
- (٩) المرجع السابق.
- (١٠) المرجع السابق.